صباح الخير

تطمئنين علينا يا صديقتي حينما تقرئين بالصباح اننا كتبنا لك صباح الخير.
في غزة في كل صباح الاصدقاء والاقارب يكتبون لبعضهم البعض صباح الخير، من يعيد رد الصباح بمثابة انه يبلغ صديقه انه لازال حيا، ومن لا يعيد رد الصباح فهذا مقلق. ولكنه يضع احتمال ان النت بالطرف الآخر قد يكون مقطوعا. فينتظر خلال اليوم ان يرد الصديق بشيء، ينتظر وينتظر.. فيعود في صباح اليوم التالي يرسل له تحية صباح جديدة. فإن لم يرد ينتقل لمرحلة متطورة اكثر. هنا يبدأ الاتصال على الجوال ورحلة الشقاء والعذاب في ان يلتقط الخط. ففي حال عدم الرد يأتيك رد عبر المجيب الآلي، إما: "الهاتف الذي تحاول الاتصال به لا يستقبل مكالمات" او "الهاتف مغلق!" اذا كان الرد ان الهاتف مغلق حاليا فهذا احتمال كبير انه استشهد، اما اذا كان لا يمكن الوصول فهنا يبقي الأمل كبير، في ان الشبكة لديه واقعه وانه ما زال حيا. ويبدأ بالاتصال بالأشخاص القريبون منه لكي يطمئنوه عليه. ويظل يحاول حتى يصل الى الخبر اليقين، فيما إذا كان صاحبه حي يرزق ام أنه استشهد. ولذلك حينما نقول في الصباح، صباح الخير نقصد اننا بخير.

هناك افعال اخرى بالحرب اختلفت معانيها الاصلية، ومن ضمن المتغيرات والتحولات بالحرب، انك حينما تذهب الي الحمام في الصباح، في مكان النزوح المقيم به وانت تحمل زجاجة ماء لترين، وورق تواليت باليد اليمني بدل الشطّاف، وسطل ماء وقشاطة باليد اليسرى بدل السيفون، وتجد الحمام فارغا رغم استعجالك! حينها لسان حالك يقول: "ياه كم انت جميل ايها العالم." وتجلس مبتسم المحيا.
وحتى نوضح للسادة القراء عن سبب دخولنا الحمام محملين بكل تلك الاسلحة من زجاجات وجرادل وورق تواليت ومكانس، باختصار، لان عددنا كنازحين بالمنزل الذي نقيم به اكثر من مائة شخص.. وخُصص لنا حمام واحد، وطوال الوقت الحمام مشغول، وطابور بانتظارك. ونظرا لشح المياه، كنا في بداية الحرب نستخدم السيفون، والشطاف، ولكن كان صاحب المنزل يملأ البرميل الخاص بالحمام والذي سعته الف لتر كل يومين، ويعود ليفرغ بسرعة. وذلك بسبب ان السيفون طوال اليوم يُسحب، ويُسحب، ولا يتوقف افراغ البرميل لدقيقة واحدة. ونتيجة لذلك يفرغ البرميل الكبير بيومين. وعليه تم اغلاق مفتاح برميل الحمام والغائه. وصارت بعد ذلك كل عائلة تشتري مياهها بنفسها وتتصرف بناء على ذلك بكل احتياجاتهم للمياه ومن ضمنها الحمام، ورحلة العذاب بالذهاب اليه.

ولكن قبل اسبوع دعاني صديق لاحتساء فنجان قهوة في منزله وبعد فترة من جلوسنا احتجت ان اذهب للحمام مع العلم انني منذ بداية الحرب ونزوحي الى الجنوب، كانت هذه المرة الاولى التي ادخل بها حمام مجهز بكل الاشياء الطبيعية البسيطة التي تعودت عليها قبل نزوحي، واقتربت من نسيانها. حينما جلست بحمام صديقي ادركت حجم المصيبة والنكبة التي نحياها كل ثانية. يبدو اننا بدأنا بفقدان آدميتنا، ولم نرتد الى الوراء خمسين عاما بل مائة عام.

أننا نستطيع بناء ما دُمر من بيوت وطرقاتنا، ولكن لا نستطيع ترميم ما دمر من بشر وذكريات، وعاطفة وسلوك وثقافة وتعليم وعلاقات ونظام.. الخ كان الله في عوننا في قادم الايام اذا تبقى لنا من تلك الايام شيء. فأحلامنا تشوهت، وامنياتنا تقزّمت وتغيرت، وبتنا نفرح لأتفه الأشياء. فمثلا، اذا اردت ان تذهب الى السوق، وتوقف لك حصان بدل الحمار، تتفاءل بيومك وتغمرك السعادة وتحدث نفسك قائلا: "كم انا محظوظ، يبدو ان يومي هذا سيكون سعيدا." وبعد لحظات يرفع الحصان ذيله عن آخره ويبدأ بالتبرز والتبول. لكن الغريب ان الركاب، لا احد منهم يلاحظ ذلك، وكانه لم يحدث شيئا، ولا يشتمون الرائحة التي تزكم الانوف. جميعهم يراقبون البضائع على جانبي الطريق بتركيز شديد وكأنهم يسيرون على اقدامهم. ولا مانع لدى العربنجي من التوقف قليلا حتى يعطي فرصة لأحد الركاب من النزول لشراء شيء ما من البائع، ثم يعود ليركب معنا. ونصبح جميعنا اسرى ذلك الراكب ننتظره بقهر حتى يعود لنواصل سيرنا. وطوال الطريق، يسأل الركاب البائعين، وهم على الكارة، بصوت عال عن اسعار البضائع التي تشبه البورصة في صعودها وهبوطها في كل صباح.. قديش اليوم كيلو السكر؟ بقديش بتبيع النسكافيه؟ بقديش وبقديش؟؟؟

في السوق يوجد كل العالم فتجد المعلبات من مصر وتركيا والامارات والاردن وفيتنام والكويت والصين واليابان والامريكان والاسبان والهند وبلاد الواق واق كمان. فجميعهم يصنعون لنا معلبات ويلقون بها في بطوننا. والكثير منها ترفض القطط والكلاب اكلها. ومن لم يمت بالصاروخ مات بغيره، تعددت المعلبات والموت مسرطن.

اينما ادرت وجهك بالحرب هناك ألم! وجوه الناس وشحوبها يدفعك للبكاء. ملابسهم احذيتهم، الأطفال، والنساء، والرجال، الذين يصطفون على طابور التكايا، حاملين الاوعية لملئها بأسوأ انواع الطعام! والمطهو بواسطة اسوأ طباخ، والذي لا سبيل لهم سواه. وقد ينتظرون بهذا الطابور لساعات وساعات.

تظل طوال الوقت تكتم غضبك، ومشاعرك تقتلك، وتقول لنفسك يا وجع القلب! وتتألم على ما جرى لنا وما يجري وما سيجري. ثم تعود ادراجك لتستمع الى الاخبار التي تقول ان امريكا حريصة على حياة المدنيين، فتغتاظ وتغير المحطة! لتسمع أن امريكا قامت بالتصدير لإسرائيل الاف الاطنان من احدث انواع الصواريخ والقنابل والطائرات والمتفجرات، وأن اسرائيل تحاول جاهدة الحفاظ على حياتنا، وقد بلغ عدد الشهداء المعروفين الى الان، وغير المفقودين، والذين ما زالوا تحت الركام ٣٣٠٠٠ الف شهيدا فقط ، بينهم ١٤٠٠٠ الف طفل، والباقون معظمهم من النساء والشيوخ. تحاول ان تنام قليلا، ولكن الاسئلة تظل تتصارع في راسك. وكل سؤال تضع له ألف اجابة دون ان تعلم الى اين نحن ذاهبون والى متى سوف يستمر هذا الحال.

2024/4/1
علي ابو ياسين